مجلة الراصد لدراسات العلوم الاجتماعية
The Observer Journal for Social Studies Sciences
المجلد: (2)
العدد: (01)
2022

موقع الحقوق والحريات من الصراع الثقافي الإيديولوجي
(تحليل سوسيو ثقافي للصراع العربي الإسلامي - الغربي)

Website of Rights and Freedoms of the Ideological Cultural Conflict
(A socio-cultural analysis of the Arab-Islamic-Western conflict)

د. عبد السلام سليمة [1] * د. بوخيط سليمة [2] د. كتفي ياسمينة [3]

[1] جامعة المسيلة، *salima.abdeslam@univ-msila.dz*

[2] جامعة المسيلة، *salima.boukheit @univ-msila.dz*

[3] جامعة المسيلة، *ketfiy@yahoo.fr*

تاريخ الاستلام :	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/05/09	2021/05/20	2022/01/01

- الملخص:

لا يختلف اثنان على أن الحضارة العربية الإسلامية قد سبق لها وأن عاشت أوج ازدهارها في مراحل تاريخية ماضية، وما لبثت أن بدأت تتقهقر وتتراجع مكانتها شيئا فشيئا إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه حاليا من الضعف والانحطاط. ولعل في كل هاته المراحل كانت هذه الحضارة دوما على اتصال مباشر وغير مباشر مع حضارات أخرى أثرت فيها وتأثرت بها، تحاورت معها أو دخلت معها في صراعات وتناقضات، بسبب الاختلافات العميقة الموجودة في مكوناتها خاصة قيميا وثقافيا، وأيديولوجيا، وأبرز هذه الحضارات الحضارة الغربية بحكم التقارب والجوار الجغرافي من جهة، وبحكم مسيرة التاريخ التي وضعت كلتا الحضارتين دوما في صدام مع الأخرى، في عدة مراحل ومواقع، بل وبشكل دائم، وفي ظل هذا الوضع نجد موضوع مكانة حقوق وحريات الأفراد والمجتمعات وخاصة في المجتمع العربي والإسلامي يثير الجدل في خضم ديمومة مسببات الصراع الثقافي والأيديولوجي بين العالمين العربي الإسلامي والغربي من جهة، ومن جهة أخرى استمرار حالة الهيمنة شبه المطلقة لمقومات الحضارة الغربية على كل مناحي الحياة في المجتمعات العربية والإسلامية، وهدا ما سنحاول تشخيصه في هده الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، الثقافة،الأيديولوجية، الصراع الثقافي، المجتمع.

*- المؤلف المرسل: سليمة عبد السلام، الايميل: salima.abdeslam@univ-msila.dz

***Abstract* :**

No two people disagree that the Arab-Islamic civilization had previously lived at the height of its prosperity in past historical stages, and it soon began to regress and decline its position little by little until it reached the level of weakness and decline it has currently reached. Perhaps in all these stages, this civilization has always been in direct and indirect contact with other civilizations that have influenced it and are affected by it. Western civilization by virtue of proximity and geographical proximity on the one hand, and by virtue of the march of history that has put both civilizations always in conflict with the other, in several stages and locations, and even permanently, and in light of this situation we find the issue of the status of rights and freedom of individuals and societies, especially in the Arab and Islamic society, raises controversy in Amidst the perpetuation of the causes of the cultural and ideological conflict between the Arab, Islamic and Western worlds.

Key words: civilization - culture - ideology - cultural conflict - society.

1- مقدمة :

لقد عرف مفهوما الثقافة والحضارة جدلا كبيرا حولهما، إذ كثيرا ما يطلق على الثقافة مرادف الحضارة، لكن هناك من العلماء من يرى ضرورة الفصل بينهما فالثقافة "culture" والحضارة civilisation اعتقادا منهم أن الثقافة تطلق على الأمور غير المادية للمجتمع من معتقدات ومعارف وقيم وعادات وتقاليد ومختلف صور الفنون ومظاهره تأثرا بالتعريف الذي أطلقه تيلور "Tylor" عليها، بينما الحضارة تطلق على الأمور المادية للمجتمع لاسيما الاختراعات والتنظيمات الاجتماعية المدعمة لكيان المجتمع، وكذا التطورات التي تلحق بالجوانب المادية، من صناعة وزراعة وعلم وغيرها، وهناك من يرى بأن التفرقة بين المصطلحين غير مقنعة لوجود التضافر بين الجانب المادي وغير المادي للثقافة، حيث أن الاختراعات المادية كلها كانت مجرد أفكار أو خيال، وما لبث أن برز رأي يصحح مسار العلاقة بين شطري الثقافة ويرى أنه لا مانع من استخدام مصطلح الحضارة للتعبير أو للدلالة على مستويات الثقافة الأكثر تقدما (الفوال، 1992)، وهو التحديد الذي استنتجناه من خلال استخدامنا للمفهومين.

ولتحليل كل هذا سنتطرق تباعا للنقاط التالية:

- مفهومي الحضارة والدولة وعلاقتهما ومفهوم الإيديولوجية.
- لا توجد حضارة إنسانية واحدة بل حضارات متباينة ومتنافسة ومتصارعة.
- التسليم بوجود الصراع الثقافي.
- الحضارة تقودها صفوة حضارية واعية بأهداف الجماعة القيمية.
- أسس الحضارة العربية الإسلامية.
- خرافة حوار الأديان والثقافات.
- علاقة الحضارة العربية الإسلامية بالحضارة الغربية.

2- الإشكالية:

من المواضيع التي أثارت الجدل بين المفكرين ولا تزال، ذلك التغير في موازين القوى والتأثير بين الحضارتين العربية الإسلامية والغربية وتدرج أثر العوامل الداخلية إلى تلك الخارجية والتي لعِبَت دورا في حالة التقهقر الكبير الذي عرفته الحضارة العربية الإسلامية عبر مرور الزمن مقارنة مع الحضارة الغربية للوصول إلى الدور الذي لعبته الثقافة العربية الإسلامية في تراجعها من ناحية وفي غزوها من طرف تلك الثقافة الغربية من ناحية أخرى حين طغت دعائم ومقومات وأهداف هذه الأخيرة فأصبحت هي الأقوى سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أو الدول. أخذا بالرأي القائل أو المعتبر للثقافة كأهم مكونات ومقومات الحضارة، وبالتالي مكانة حقوق الأفراد والمجتمعات من كل ذلك.

وعليه فعملنا سيجمع بين مجموعة أراء قد تختلف أو تتفق في نظرتها للصراع القائم والمستمر بين الحضارات خاصة العربية الإسلامية والغربية انطلاقا من مبدأ كون الصراع كمفهوم مطلق في حد ذاته حالة طبيعية عادية موجودة دوما وعلى كل المستويات بما في ذلك المستوى الحضاري.

3- تحديد المفاهيم:

3-1- مفهومي الحضارة والدولة وعلاقتهما ببعضها البعض:

- **الحضارة:** يعتقد البعض أن كلمة حضارة دخلت مصطلح العلوم متأخرة في أواخر القرن 18؛ إلا أن هذا كلام غير دقيق إذ أن ابن خلدون استخدم مصطلح الحضارة وقاربها لمفهوم المدنية الحديث لكن مصطلح علم الحضارة هو المتأخر الظهور، وتنبغي الإشارة هنا إلى أن استخدام ابن خلدون للمصطلح لا يزال هو الشائع عند القول هذا إنسان متحضر أو مجتمع متحضر فيما معناه الإنسان أو المجتمع المدني، وعليه اختلف الباحثون في رؤيتهم لمفهوم الحضارة حيث قسمهم الدكتور حسن جبر إلى أربع اتجاهات: (جبر، 1999)

الاتجاه الأول: واهتم ممثلوه بثمرة الحضارة كغاية للنشاط البشري أيّا كانت مادية أو معنوية.

الاتجاه الثاني: ويمثله خاصة "ريسلر"، "كولن ولسون" و"أبو الأعلى "المودودي" والذين اعتقدوا أن الحضارة لا تكمن في ثمرتها بقدر روحها، إذ أنه إذا مرضت روحها فإن الفرد يعاني من نفس المرض.

الاتجاه الثالث: يمثله "عبد العزيز المؤهل" و"ديورانت" معتقدين أن الحضارة ترى من خلال نظمها الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية لما لها من آثار في تنظيم حياة الناس واجتماعهم وتقدمهم.

الاتجاه الرابع: ويهتم أصحاب هذا الاتجاه مثل "توينبى" بالتفاعل والقدرة على قبول التحديات والتغلب عليها فهم يرون الحضارة في ظهورها وتقدمها مرتبطة بطريقة وأسلوب مواجهة الإنسان للتحديات وتعامله مع المشكلات.

أما ابن خلدون فالحضارة عنده قريبة لمفهومها عند المؤرخين المحدثين، إذ يعتبرها طور طبيعي من أطوار الحياة فالمجتمعات أو الأجيال تنتقل من البداوة إلى الحضارة إذا تحسنت أحوالهم. فالحضر عنده خلاف للبدو والحاضر خلاف للبادي.

كما أن ابن خلدون أكد على فكرة ظهور حضارات على أعقاب أخرى نتيجة صراع ينتهي بغلبة واحدة على أخرى إذ يقول في الفصل الخامس عشر من مقدمته الشهيرة في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة: "تنتقل الحضارة من الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أمينته وبني العبّاس، وانتقلت حضارة بني أميته بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد، وانتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة، إذ أمور الحضارة من توابع الترف... والنعمة من توابع الملك... فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله..."(ابن خلدون، 1983).

يتضح من مقولة ابن خلدون أن الحضارة ترتبط بظاهرة المدنية وقد أثبت ذلك أغلب المؤرخين إذ أن ظهور الحضارات في معناه العام يرتبط بظاهرة الدولة وفي معاني أخرى مرتبطة بالقرى الكبيرة أو المدن أو الحواضر وهي الصورة المصغّرة للدولة في نظامها هذه الأخيرة التي تعد شروطها الثلاث الأساسية:

الأرض ذات الحدود السياسية – الشعب المنتمي لهذه الأرض – القوانين التي تنظم العلاقات بين الأفراد والتنظيمات على اختلافها في شكل دساتير، -هذه الشروط سنسقطها فيما بعد على الدولة الإسلامية-.

وعندما نتكلم عن النقطة الأخيرة فإننا نتكلم ضمنيا عن الممارسات السياسية التي تميز كل نظام عن الآخر، هذه الممارسة السياسية التي ارتبطت بها مشكلة الأيديولوجية منذ بدايات ظهور هذا المصطلح، إذا ما اعتبرنا أن ميكيافالي أول من ناقش مواضيع لها علاقة بالظاهرة الأيديولوجية، وذلك من ملاحظاته حول الممارسة السياسية للأمراء، ثم تطور المفهوم –الأيديولوجي- عند الكثيرين في العصر الحديث، حيث اعتبر –ماركس- أن الأيديولوجية تحدد من خلال المناقضات الاجتماعية أو الوجود الاجتماعي فهي شرط أساسي لاستمرار نظام الطبقة المهيمنة، ووافقه غرامشي في فكرته هذه وأضاف لها فقط البعد القيمي والثقافي زيادة على البعد المادي، حيث اعتبر الطبقة المهيمنة مطالبة بإخضاع الطبقات الأخرى لها ليس فقط من خلال متطلبات العملية الإنتاجية بل كذلك بإصدار المراسيم التي تعمل على التحويل المستمر للعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية عموما.

وبعيدا عن التأثر بالنظريات الغربية وتوجهاتها فإن جوانب منها صادقة إذا ما أسقطت على النظام العالمي السائد حاليا والذي اختصرت فيه الدول إلى طبقات تهيمن عليها الطبقة الأقوى –القطب المهيمن- إذ من مصلحتها لضمان استقرار هيمنتها هذه إخضاع كل الثقافات والقيم والأفكار الفرعية في العالم وتوجيهها لخدمة مبادئها الخاصة.

2-3- مفهوم الأيديولوجية:

عرف أحمد زكي بدوي الأيديولوجية بأنها ناتج عملية تكوين نسق فكري عام يفسر الطبيعة والمجتمع والفرد، ويطبق عليها بصفة دائمة، وتتشكل إيديولوجية كل جماعة ببيئتها الجغرافية والاجتماعية ونواحي نشاطها (زكي بدوي، د.ت).

والأيديولوجية هي نظام من الأفكار والمبادئ المتأصلة في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، السائدة في أي مجتمع، واستمرار وجودها، أو تعديلها يتوقف على التطور الاجتماعي والمادي والثقافي للمجتمع، ويمكن استعمالها كأداة للمعارضة أو الدفاع عن النظام القائم. (فيلالي، 1995).

4- لا توجد حضارة إنسانية واحدة بل حضارات متباينة ومتناقضة ومتصارعة:

يقول مالك بن نبي في علاقة الثقافة بالحضارة والعلم: "الثقافة تعطي العلم، إنها تعطي السلوك والغنى الذاتي الذي يتواجد على كل مستويات المجتمع، والثقافة تعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تخلق الحضارات: الثقافة والعلم ليسا مترادفين، الثقافة تولد العلم دائما، والعلم لا يولد الثقافة دوما، ولا يمكن استبدال هذين المفهومين بالآخر.... أولا لدى وضع برنامج يهدف إلى الارتفاع بثقافة بلد ما إلى أعلى مستوى من مستويات الحضارة وثانيا في فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية ذات الأهمية الأساسية".

هذا التحديد للعلاقة بين الثقافة والحضارة عند ابن نبي يتفق مع التحديد الذي انطلقنا منه حين اعتبرنا الثقافة تشكل الحضارة وهذه الأخيرة تعكس مستويات أكثر تقدما للثقافة، وعليه يتوجب علينا الإجابة على التساؤل الذي مفاده:

هل توجد ثقافة عالمية واحدة أم ثقافات متباينة؟

- لا يتفق الدارسون حول هذه المسألة فهناك من يرى وجود ثقافة إنسانية عالمية واحدة وكثيرون يعارضون ذلك وخاصة من يعرفون بممثلي اتجاه الخصوصية التاريخية الذين يؤكدون على وجود ثقافات لكل منها خصوصية مستمدة من خصوصية المجتمع ذاته محل وجودها، حيث توجد ثقافة شعبية "culture"، الثقافة الفرعية أو التحتية "Sub-culture" وأهم من درس هذه الثقافات، لويس أوسكار وأخيرا الثقافة العالمية "Universal culture" والتي أنتجتها شبكات الاتصال التي جعلت العالم كله قرية صغيرة أوصلت النظام العالمي إلى ما يعرف بالعولمة.

فكيف توجد ثقافة عالمية وبالتالي حضارة عالمية خاصة بكل البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ومللهم وقيمهم وأوطانهم ومستوياتهم المعيشية، إذ أن القول بثقافة عالمية إنما هدفه مخفي يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة لتبقى تابعة لها واستبدال الثقافة المحلية بالثقافة العالمية تكريس لثقافة الأقوياء المتأهبة دوما لابتلاع ثقافة الضعفاء (سعيد رمضان البوطي، 1990).

هذه الفكرة الأخيرة تعكس حالة الصراع المتأصلة في علاقة الثقافات ببعضها البعض والتي نعتقدها نتاج صراع إيديولوجي حيث أن كل إيديولوجية تلعب دور المدافع الفكري عن مقومات وأسس ثقافة أهلها وعليه يمكن أن نخلص لنتيجة تؤكد مسألة صراع وتنافس الحضارات الناتج عن صراع ثقافي الذي بدوره انعكاس لصراع إيديولوجي، مآله

بقاء وهيمنة حضارة الأقوى من حيث الوعي بأهداف الجماعة بعيدا عن كل تأثير بالاتجاه الفكري الماركسي.

5- التسليم بوجود الصراع الثقافي:

من بين التصورات الموجودة، ذلك الذي يرى بأنه لا تخلو أية ثقافة من مظاهر الصراع الداخلي، وهذا الأمر لا يخص الثقافات البدائية فقط، بل كل الثقافات الأخرى الحديثة، بحيث أنه ما من ثقافة قد تمكنت من الوصول إلى تنظيم العديد من مظاهر السلوك فيها بشكل متزن ومتناسق وبشكل نهائي، بل إنه توجد بعض مظاهر الثقافة التي لا تتماشى مع ما كانت تتجه إليه من قبل، وهذه الحالة كلما زادت في البروز، كلما زاد النقص في التكامل بين مكونات الثقافة المجتمعية، وبالتالي لم تعد تكون نظاما ثقافيا متعلقا على نفسه، فمرد هذا الوضع، هو عدم الاتفاق حول نفس المعايير والقيم في المجتمع مما يؤدي إلى غياب الإجماع واختفاء التكامل والعمل على الوصول إلى أهداف متعارض داخل الجماعة الواحدة، (عاطف غيث، د.ت)، ومثال ذلك ما نلاحظه بين الأجيال المختلفة في المجتمع الواحد، (كبار وشباب)، وبين الطبقات المهنية المختلفة...إلخ.

وما ينطبق على الصراع داخل الجماعة الواحدة، ينطبق على الثقافات المختلفة خاصة وأنه باختلاف الجماعات الإنسانية تزداد احتمالات الاختلاف في أنماط السلوك والأفعال وبالتالي الاختلاف في الأهداف المرجو تحقيقها من طرف ثقافة كل جماعة، فكلما زادت درجة الاختلاف وصولا لحالة التناقض، كلما زادت درجة وحدة الصراع بين الثقافات، فينتج الصراع الخارجي ومثال ذلك الصراع بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة. (عبد الرزاق جلبي، د.ت).

6- الحضارة تقودها صفوة حضارية واعية بأهداف الجماعة العامة:

لم يقع الاتفاق بين الباحثين والدارسين المهتمين بموضوع الحضارة حول من يقود قيامها هل هو الوعي الشعبي أم الصفوة من أفراد المجتمع.

فإذا كان "مالك بن نبي" يعتقد بأنه ليس دور معرفة النخبة بل الإدراك الذي يوجد على المستوى الشعبي باعتبار الحضارة نوع من التغيير فإن الدكتور "حسن جبر" يرى بأن الحركة التاريخية قامت بفضل القصور الحضاري المتوفر، وبدون ذلك يكون الانتكاس إلى الوراء، مؤكدا على ضرورة التمهيد الحضاري لحركة التاريخ حتى تأخذ الحركة معناها ومكانتها، هذا التمهيد الحضاري يسمى بالوعي الحضاري "وليس من الضرورة أن يكون هذا

الوعي قائما في أذهان الجماعة كلها لتتحرك للعمل بل يكفي أن تكون هناك أقلية قاعدة واعية التي تسمى عادة الصفوة أي الفئة المختارة" (فيلالي، 1995).

هذه الفئة من أفراد المجتمع بالفعل كانت رائدة قيام الحضارات على تعاقبها من اليونانية إلى العربية الإسلامية، حيث كانت دوما تلعب دور القيادة والتوجيه فكان لهم الحل والعقد والاختيار والرأي باعتبارهم الأدرى، لكن كل هذا يشترط في تحقيقه توفر صفات معينة لدى هذه الصفوة أهمها العلم، العدالة، الرأي، الحكمة، القدرة والرغبة وهذا ما توفر سابقا عندما قامت الحضارة العربية الإسلامية وكانت في أوج ازدهارها وتقدمها.

7- أسس الحضارة العربية الإسلامية:

إن الحضارة الإسلامية غالبا ما ترتبط بمفهوم تراث الإسلام، هذا الأخير لا يشير إلى ما خلفه الإسلام بل إلى ما أضافته الأمة الإسلامية إلى سوق الإنسانية أو الحضارة الإنسانية بصفة عامة من منجزات وقيم وأثر في الناس، فالحضارة الإسلامية أو الكلام عنها هو حديث عن الإسلام كحضارة شاملة وليس كدين فحسب.

والحديث عن الحضارة العربية الإسلامية يضع بالمقابل حضارات أخرى: الغربية الأوروبية المسيحية، الشرقية الأوروبية، الهندية، وغيرها من الحضارات المتباينة "قيميا" أي أن كل حضارة تخص جماعة بشرية معنية متحضرة على طرازها الخاص بها.

وكل حضارة من خلال تسميتها تأخذ بعدين، مكاني وسكاني وهذا ينطبق على الحضارة العربية الإسلامية، إلا أن هذا لا يقصرها على المسلمين فقط أو العرب فقط فالإسلام كونه أهم وأول أسس الحضارة العربية الإسلامية ليس له حدود مكانية أو زمنية والذين يعتقدون بوجود حدود مكانية للإسلام إنما هي حدود الدولة الإسلامية، وعليه فالحضارة الإسلامية تعني ما تم إنجازه داخل حدود هذه الدولة وما أنجزه المسلمون خارجها، وتعاقب الحضارات واندثار بعضها وبقاء بعض المخلفات المادية فقط الشاهدة على قيامها يجعلنا نطرح سؤالا بخصوص استمرارية قيام الحضارة الإسلامية لنقول قد تقوى هذه الأخيرة وقد تضعف، لكن أن تنتهي وتزول فهو أمر مستبعد، كونها دون غيرها من الحضارات تقوم على أساسين أو ركيزتين تضمنان استمرارها هما الإسلام كعقيدة دائمة والإسهامات العربية وما ضعفها وقوتها إلى نتائج لفعل المسلمين أنفسهم الذين يضطلعون بمختلف الإنجازات وفقا لهذين الأساسين كما أن ضعف أو قوة الحضارة

العربية الإسلامية أيضا يرتبط بالعلاقات والتأثيرات الخارجية المستهدفة للدولة الإسلامية باعتبارها ليست أرض هذه الحضارة وحدها، بل على الأقل مركز قيامها وظهورها وبروزها الأساسي وقد ارتبط ظهور وازدهار الحضارة العربية الإسلامية بقيام دولة المسلمين أولا في شبه الجزيرة العربية ثم توسعها إلى حدودها المعروفة حاليا بعدما كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية للعرب على طول تاريخهم، ثم نجحت قبائل في بسط نفوذها على غيرها من القبائل العربية وكبرت حتى أصبحت دولة عربية بعدما أضاف الإسلام لها الشروط المنتقصة وهي القواعد والدستور المحدد لعلاقات الأفراد والتنظيمات أفقيا وعموديا.

وتعد قوة دولة ما أساس هام أيضا يسمح لها بإنشاء حضارة تكون قوتها بقدر قوة الدولة ذاتها، فقوة العرب لم تكن شيئا بمقابل قوتي الفرس والروم غير أن توحيد الإسلام للعرب وتقوية دولتهم جعل بلاد الفرس نفسها جزءا من دولة المسلمين، وزيادة على القوة نجد عنصر الأمن والاستقرار كيف كان ولازال يؤثر على منجزات أية أمة كانت باعتبار هذه المنجزات هي نفسها المقياس الحضاري، حيث تزدهر وتنمو أو تركد وتتقهقر طرديا مع عامل الاستقرار الأمني.

فالحضارة العربية الإسلامية بدأت مرحلة ركودها وتأخرها عن دورها الريادي عالميا ببداية الاضطرابات الداخلية التي نتجت عن اضطرابات خارجية أول ما استهدفته هو تقسيم وتجزئة الدولة الإسلامية إلى دويلات وأقاليم في أغلبها متصارعة أكثر منها متعاونة وهذا ما سنبرزه في استهداف الإمبريالية والاستعمار للحضارة الإسلامية.

8- خرافة حوار الأديان والثقافات:

إن الدعوى إلى ما يصطلح عليه بحوار الأديان والذي يرتبط ارتباطا وثيقا بحوار الثقافات المختلفة عن بعضها البعض، بل والمتناقضة، غالبا ما تصدر من المفكرين والساسة ورجال الدين والمثقفين الغربيين، وهم أنفسهم من يتزعمون مؤتمرات الحوار التي تنظم هنا وهناك، غير أن ما يلاحظ على هذه العملية هي نظرة العداء المسبقة لكل ماله علاقة بالمجتمعات الإسلامية، وهذه النظرة هي الدافع الحقيقي للحوار، والمتحكمة به فعلى سبيل المثال، الموسوعة الفرنسية الثقافية تنص على أن رسول المسلمين صلى الله عليه وسلم، قاتل ودجّال وخاطف نساء وأكبر عدو للعقل البشري وتصف المسلمين ودينهم بأبشع الصفات. (بن عبد الكريم الجزائري، د.ت)، كما أورد المفكر "فوكوياما" في كتاب نهاية التاريخ، بأن النظام الرأسمالي هو الخلاص الأبدي للبشر على الأرض، وأن الإسلام

رغم ضعفه، فهو الدين الجديد المنتصر على الرأسمالية، كما اعتبر مفكرون آخرون الإسلام الأصولي، بالخطر الذي يهدد الجغرافيا السياسية للمستقبل، وأن الإسلام والرأسمالية نقيضان لا مجال للحوار بينهما، بحسب ما أكده المستشرق "برناردلويس" (الساعاني، 2011).

فإذا أسقطت هذه المقولات على تلك التصرفات العدائية للغرب ضد مصالح الإسلام والمسلمين، مثل الحروب الصليبية، والقضاء على المسلمين في إسبانيا وهدم دولة الخلافة الإسلامية وصولا إلى تأسيس دولة اليهود في فلسطين، بالإضافة إلى إلصاق تهم الإرهاب والتطرف بالإسلام والمسلمين (بن عبد الكريم الجزائري، د.ت)، نصل إلى استنتاج مفاده أن الحوار المزعوم بين الديانات وبالتالي الثقافات إنما هو ضرب من الخرافة والتلاعب على الحقائق التي سجلها التاريخ.

9- علاقة الحضارة العربية الإسلامية بالحضارة الغربية:

إن العلاقة أي كانت طبيعتها بين الحضارتين العربية والغربية ونخص هنا الأوروبية لم تكن هكذا هباء، بل حكمتها عدة عوامل حتمت قيام هذه العلاقة أهمها على الإطلاق الجيرة، إذ تطل كلتا الدولتين على الأخرى وتجاورها كما عرف تاريخهما العديد من الاتصالات منها التعاونية ومنها النزاعية أو التنافسية بالمنطقتين، كما يحكم هذه العلاقة كذلك ذاك التنافس الذي كان ولا يزال وسيضل بين أسس الحضارتين العقائدي، القيمي والثقافي، فما امتداد معالم الحضارة العربية الإسلامية إلى جنوب غرب أوروبا ووسط آسيا إلا نتيجة ذلك التنافس الذي يبقى مبتغاه توسع وطغيان مبادئ على أخرى وغلبتها، وما الحركة الاستعمارية التي شهدها العالم العربي بين القرنين 17-20 من طرف الأوروبيين إلا انعكاس للصراع المستمر والدائم الوجود بين الجانبين ورغبة في تغليب قوة الحضارة الغربية على العربية الإسلامية. وفي نفس الوقت طمس معالم هذه الأخيرة بمقوماتها المعنوية والمادية.

هذه العلاقة بين الحضارتين الغربية والإسلامية عرفت عدة تغيرات وأشكال فبعدما كانت من الجنوب باتجاه الشمال ومستهدفة كما أثبته التاريخ تحسين أوضاع إقليم يعيش في ظلمات تحولت بالاتجاه المعاكس في عدة أشكال أهمها الغزو الحضاري الذي يتضمن غزوا ثقافيا بعدما سبقه غزو مادي وعسكري، والذي دعمه فيما بعد تأثر عربي بكل ما هو أجنبي وخارجي وغربي، هذا التأثر غزرّه ما يعرف بالغزو الثقافي.

9- 1- أثر الحضارة العربية في نهضة أوروبا: بدأت الحضارة العربية الإسلامية في الظهور والازدهار بقيام الدولة الإسلامية أي بظهور الإسلام، قبل هذه المرحلة وبعدها والرعاية عصر التنوير بأوروبا عاشت هذه الأخيرة ظروفا تعرف بالظلامية أهم ميزاتها أنها عرفت في كل ميادينها الحياتية سلطة مطلقة ومجحفة من الكنيسة متمثلة في رجال الدين الذين عملوا على تجسيد الجهل واللاوعي خدمة لمصالح السلطات الحاكمة فتجسدت آنذاك المراكز الثقافية في الأبراج التي يسكنها الحكام والأرستقراطيون فحسب، بعدها لعب حوض البحر الأبيض المتوسط دورا هاما في عبور الحضارة العربية الإسلامية حين وصلت الفتوحات الإسلامية إلى الأندلس وصقلية فقربت بذلك مصادر التأثير الإيجابي من الأوروبيين الراغبين في ذلك.

ومعروف عن الأمة الإسلامية أنها في مراحل ازدهارها كانت من أقصى شرقها إلى غربها تشكل نمطا متميزا من الحياة السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية وتعرف نظاما أيضا متميزا من كل جوانبه لم تعرفه أية أمة أو دولة أخرى ومنذ نشأة الأمة الإسلامية والعلاقات موجودة بينها وبين أوروبا وتتراوح بين السلم والصراع، السلم ينعكس خاصة في العلاقات الاقتصادية والتجارية التي لم تنقطع إلى يومنا هذا.

والصراع تعكسه الحروب والتوترات الدائمة الوجود والتي ظهرت وبرزت أكثر مع الحروب الصليبية التي استهدفت تدمير مقومات حضارة حاصرت وغطت على الوجود الصليبي عالميا، هذه الحروب إذا كان هذا هدفها فإن من أهم نتائجها أنها خلقت كما أكده المؤرخون أثرا كبيرا في المشاركين فيها من الصليبيين حيث شهرت لديهم ميدانيا بحضارة العرب المسلمين البعيدة كل البعد عن الوحشية والهمجية والتخلف.

وتأثير الحضارة العربية الإسلامية في الغرب شمل كل الميادين لكنه بدأ من نقطة بداية أية حضارة وهي الناحية المعرفية، أي العلم الكفيل بنشر الوعي العام، ولعبت الترجمة هنا دورا كبيرا، حين ترجمت الأعمال العربية في مختلف الميادين العلمية إلى اللغة اللاتينية، هذه الخطوة كانت الأساس والممهد لبناء الحضارة الغربية على أساس علمي حقيقي وهذا مع بداية عصر النهضة الأوربية، هذه الأخيرة كان نموها وتقدمها يتزامن بشكل عكسي مع تقهقر الحضارة العربية الإسلامية، فهل هذا من باب المصادفة أم أنه أمر مستهدف في علاقة الحضارتين ببعضها البعض؟

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الغربيين في بداية النهضة حلوا مشكلة التناقض بين الدين والحضارة بتحديد سلطان الدين وخصره في صلة ما بين الفرد وربّه بعيدا عن المواقف

الاجتماعية كلها وهنا الفرق بين المسلمين والغربيين، فهؤلاء بدؤوا قبل كل شيء بتقويم دينهم الذي يتعاملون معه ودراسة جذوره التاريخية، فانتهوا إلى قناعة علمية تامة بأن دينهم في مجمله ليس إلا ظاهرة اجتماعية أو سياسية أما المسلمون فقد قلدوهم عن جهل وفي ذلك مساواة بين طبيعة الدينين فهل إذا كانت الممارسات الدينية الغربية في مراحل سابقة المعرقل الرئيسي لكل نمو أو تطور حضاري، فهل كذلك الأمر بالنسبة للأمة الإسلامية؟

9- 2- أثر الاستعمار والإمبريالية في ركود الحضارة الإسلامية وتراجعها وتأثير خرافة الحضارة الغربية على العقول: طبيعي جدا أن الحديث عن التقهقر يحمل ضمنيا المقارنة بين شيئين أو عنصرين، فتقهقر الحضارة العربية الإسلامية قياسا لذلك التطور والتقدم السريع والنوعي الذي عرفته نظريتها بأوروبا التي انطلقت بعد قرون من نشأة الأولى.

ويعتقد "سعيد رمضان البوطي" أن "مصدر البلاء الذي عانته الأمة الإسلامية من افتتانها بالحضارة الغربية، في أنها أقبلت عليها بدافع من التعلق بل العشق النفسي لها قبل أن تقومها في يوم من الأيام، من خلال التأمل العقلي فيها، وتلك هي آفة الحضارات التي ازدهرت في أصحابها حينا من الدهر، ثم ما لبثت أن تحولت إلى إعصار قضى عليها ودمرها من الجذور" (سعيد رمضان البوطي، 1990).

ليعدد فيما بعد ثلاث مخططات أساسية اعتمدها العالم الغربي في غزوه الفكري وقادة الغزو الاستعماري للنيل من الشخصية الإسلامية وصهرها في بوتقة الحضارة الغربية هي:

- المخطط الإعلامي.
- المخطط التأريخي.
- المخطط التربوي.

ويتفق معه مالك بن نبي نسبيا في توضيح دور الاستعمار الغربي وأثره على ضمان الركود الدائم في نقطة الصفر ليس فقط تجاه الأمة الإسلامية بل كل العالم المتخلف كما يطلقه عليه الدارسون، إذ يرى مالك بن نبي أن الاستعمار يعزف في دول العالم الثالث على أرغن ذي نغمتين، النغمة الأولى توجه الضياع والتفكك والانحلال في هذا العالم بمقوماته مما يؤدي إلى خموله وتعفنه، هذه النغمة ذات سحر حتى النشوة والبلاهة والفناء، وإذا لم تنسلخ نخبة هذا العالم ومسؤولوه وشعبه عن ذلك السحر فإن الصوت العليل سيستمر

حتى لا يصبح لكلمة استقلال أو خصوصية أي معنى أو وجود، إلا تلك السخرية الشنيعة التي تهيمن على مصير أمة فاقت التخلف.

وبما أن الأغراض عديدة لهذه الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية والتي أصبحت في شكلها المعاصر غير مباشرة في صورة تبعية مطلقة، قلنا الأغراض متعددة أهمها ضمان ريادة غربية مطلقة قيميا وماديا فإن كان محاولة استفاقة من طرف الأمة التابعة تهديد لمصالح الجهة التابعة لها وعليه فالاستعمار في حال حدوث ذلك يلجأ إلى نغمة تضمن له مصالحه وهي نغمة التهديد والوعيد والابتزاز أو بطريقة أخرى يقول "لا تلمسوا مالنا، لا تلمسوا مصالحنا" (بن نبي، 1995).

إن الصراع الذي بدأت ملامحه ترتسم في صورها المعاصرة منذ حوالي ثلاث قرون بين الأمة الإسلامية في دويلاتها المنقسمة بفعل فاعل والعالم الغربي المجتمع وفقا لمصالحه العامة إذا كانت ملامحه مادية اقتصادية فإن باطنها وأصلها ثقافي حضاري أيديولوجي فلماذا انتهى هذا الصراع إلى حالة تبعية الطرف المسلم لذلك الغربي بدلا من العكس.

أكيد أن النتيجة مخطط لها أكثر من طرف الجهة المدركة لأهمية ذلك وخطورته فمختلف المشكلات الاجتماعية، السياسية، الدينية والأخلاقية التي تعانيها الأمة الإسلامية إنما تتبع من مصدر رئيسي واحد هو انجذابها الدائم إلى فلك الحضارة الغربية، وحتى بالنسبة للمحاولات العديدة والمتكررة من طرف جل العلماء والباحثين لإيجاد حلول هذه المشاكل فإنها تبقى ثانوية غير ناجعة وآثارها جزئية ما دامت لا ترجع إلى أساس هذه المشكلات وما داموا يعالجونها من موقع داخلي وهم منجذبون إلى داخل نطاق التأثير الغربي وعليه فكل الحلول تبقى دائرة في نطاق التبعية الغربية.

وضعية التبعية هذه بدأت بانهيار الدولة الإسلامية (الأمة الإسلامية) الذي كانت نهايته ضعف وتخلف، حيث تزامن ذلك مع بروز وسطوع نجم حضارة من الغرب، فكانت نظرة المسلمين إليها نظرة انجذاب، هذه الوضعية استغلها الاستعمار الغربي الذي قاده البريطانيون في البدء فرسخوها في العقول ملا لمسوه من شعور بالضعف والنقص في نفوس المسلمين فعلموا واستخدموا كل الوسائل لطمس كل ما مضى من تفوق حضاري عربي إسلامي في الذاكرة العربية باعتبارها خطوة هامة تجعل من الحضارة الغربية بداية ومنشأ كل حضارة ناجحة وصالحة في تاريخ البشرية ضمانا للتفوق الغربي وإقناع المسلمين به وغرسه في الشخصية الإسلامية والعربية وأهم عمل ومجهود قام به الغربيون لتحقيق

أهدافهم أن كل المقومات والأسس الحضارية الغربية وجدت تأثيرها بفعل غرسها على مر السنين وعلى كل المستويات، ثقافية، قيمية، تربوية، اقتصادية...الخ.

مما يجعل من اليقظة الفكرية لأفراد الأمة الإسلامية وحدها غير كافية كما يدعي البعض لتكسير سلسلة التبعية الحضارية التي تخضع لها، بل المسألة أكبر من ذلك والحل أعقد وأصعب من هذا.

فالمشكلات القائمة والمتفاقمة داخل الأمة الإسلامية باعتبارها ليست بالعادية أو العفوية الداخلية فحسب بل مخطط لها وبإحكام من المؤكد أن حلها بقدر ما يتطلبه من وقت فإنه يتطلب أيضا تخطيطا وتدبيرا واهتماما يفوق ربما مستوى المخططين لافتعالها حيث يشترط:

- أن يكون داخليا وذاتيا يبدأ بوعي تام على مستوى النخب والشعوب والأفراد بضرورة حتمية هذا العمل ثم ينتقل إلى مرحلة الفعل بعد التخطيط والتدبير والذي لا يكون بدوره إلا بتوفر عامل الإرادة الحقيقية، حتى لا تبقى الأمة العربية الإسلامية كما وصفها مالك بن نبي: تنفعل أكثر مما تفعل.

خاصة في ظل ما يفرضه نظام الأحادية القطبية الحديث الذي لا يترك مجالا للحرية والخصوصية لتلك الأنظمة الفرعية منه وبشكل أخص تلك التي تناقض مبادئه قيميا وفكريا والتي يمكنها أن تشكل عائقا أمام مخططاته وطموحاته وأهدافه السياسية، المادية الثقافية، هذه الهيمنة تأخذ طابعا تسلسلها.

القطب الرائد المهيمن ⟵ الأنظمة داخل كل دولة ⟵ الشعوب والأفراد.

وما يختلف من حالة هيمنة لأخرى فقط هو الأسلوب والطريقة المتبعة، وتبقى النتيجة واحدة ألا وهي ضمان استمرار الهيمنة والتبعية خدمة لمصلحة النظام السائد بغض النظر عن الانعكاسات المترتبة على المستويات الدنيا والتي أثبتت التجارب أنها غالبا ما تكون وخيمة، بل ومتجاهلة كليا لحقوق الأفراد والجماعات وحرياتهم.

10- خاتمة:

إن أي مجتمع لا يمكن أن يعيش ويستمر في الوجود في ظل حالة الصراع الدائمة دون أن تتوفر لديه في ضميره الجمعي بعض من عناصر الضمير النقدي للحكم على ممارسته الخاصة، ذلك أن هذا الضمير النقدي من شأنه أن يقود إلى نظرة نقدية ذاتية تقتضي إنتاج قيم اجتماعية جديدة، وبعد نظر ينطوي على الديناميكية الثقافية بما فيها

من استقلال ذاتي، وبدون هذه الوظيفة الهامة للضمير النقدي يتجمد المجتمع ويموت بعد فترة زمنية معينة، أو يضطر إلى قضاء حياة كفاف بالنظر لافتقاره إلى القدرة على مواصلة تحديات الصراع القائم بينه وبين مجتمعات خاصة تلك التي تمتلك ثقافات بمكونات ومعايير قادرة على الصمود والمواصلة، فحتى وإن كنّا ورثة حضارة سبق وعاشت فترات ازدهار، فإنها أيضا عرفت الانحطاط في أبشع صوره، (سفير،د.ت). ومتى سلمنا بهذه الحقيقة وعرفنا عواملها ومسبباتها وأدركنا مخاطر نتائجها، بدأنا في معرفة رسم الطريق الصحيح مجددا.

- المراجع:

ابن خلدون. (1983). المقدمة. (ط4). دار الكتاب اللبناني.

بن عبد الكريم الجزائري، محمد. (د.ت). الديمقراطية والعلمانية في ميزان الإسلام. مطبعة زاعياش.

بن نبي،مالك. (1995). مشكلات الحضارة –من أجل التغيير-.دار الفكر المعاصر.

جبر، حسن.(1999)، أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها. (ط2). دار الكتاب الحديث.

زكي بدوي،أحمد. (د.ت). معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. مكتبة لبنان.

الساعاتي،سامية. (د.ت). الثقافة والشخصية (بحث في علم الاجتماع الثقافي).دار النهضة العربية.

سعيد رمضان البوطي،محمد. (1990). حوار حول مشكلات حضارية. الدار المتحدة للطباعة والنشر.

عاطف غيث، محمد.(2009). الأنثروبولوجيا الثقافية. (ط3). دار النهضة العربية.

عبد الرزاق جلبي، علي.(د.ت). المجتمع والثقافة والشخصية. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

الفوال، صلاح مصطفى. (1992). العلوم الاجتماعية –مجالات ميادين وعلاقات-.الدار العربية للكتاب.

فيلالي،صالح. (1995). الأيديولوجيا بين النظرية والممارسة. مجلة الباحث. عدد (01). معهد علم الاجتماع بجامعة قسنطينة.

ناجي سفير، سفير. (د.ت). محاولات في التحليل الاجتماعي –الثقافة والتنمية-. ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب.